

في صميم الريف

جاذبية الأرض - عمق التقاليد - منطق البيئة

بقلم الأستاذ سيد قطب

اعتدنا أن نفكر في الإصلاح الاجتماعي ، وأن نقترح المشروعات الاجتماعية ، ونحن مطمئنون على مكاتبنا في القاهرة ، وكل ما نعتمد عليه في التفكير وفي الاقتراح هو النظريات الاجتماعية التي نقرأها في الكتب والصحف ، وهو الملاحظات التي تعن لنا عن حالة الطبقات المختلفة في العاصمة ، ثم هو بعد هذا وذلك ذكريات غامضة عن الريف ، أو ملاحظات عابرة عن تلقاهم في الحين بعد الحين من أهل الريف .

والآن - وقد عنت لي جولة في هذا الريف - أحس إن كل ما نفكر فيه ونحن في مكاتبنا بالقاهرة ، إنما هو عبث في عبث ، بل سخف في سخف ، وأن الريف الذي نريد إصلاحه ونزعم معرفتنا بما ينقصه من ضروب الإصلاح ونقترح له المشروعات المختلفة ، هذا الريف بعيد عنا ونحن بعيدون عنه ، لا يفهم أفكارنا ولا تفهم أفكاره ، وإنه لينظر إلى مشروعاتنا واقتراحاتنا نظرة الاستغراب والتعجب المصحوبين بالسخرية لأننا لا نعرف شيئا حقيقيا عنه :

وأريد أن أطلقها صريحة مدوية يهتر لها من يشاء ويتندر بها من يشاء : نحن في القاهرة غرباء ، غرباء عن مصر . نحن أجناب عن حقيقة هذه البلاد ، أجناب عن صميم هذا الوطن . نحن نختلس الجنسية المصرية اختلاسا ونروح ندعى أننا مصريون بينما الصلة منقطة بيننا وبين مصر . . . مصر التي هي هنالك في صميم الريف ، مضر الخالدة في ضمير الزمن ، مصر الحقيقية ، لا مصر المصطنعة الشائبة المزيفة التي في القاهرة .

فإذا كنا جادين في ادعائنا أننا نريد للريف الخير ، ونفكره في الإصلاح ، فلنعرف الطريق أولا إلى ضمير هذا الريف ، ولنعرف أولا إلى قلبه ، ولن ننال ذلك ونحن جالسون في مكاتبنا المريحة بالقاهرة ، ولن نصنعه ونحن نتنفس في جو القاهرة ، ونحن نحيا هذه الحياة الصناعية المزينة الغربية على النفس المصرية ، وعلى الطبيعة المصرية ، وعلى البيئة المصرية . الريف هنالك في الريف ! ومصر أيضا هنالك ، والمجتمع المصري الذي نحاول علاجه ، والأمراض الاجتماعية التي نطلب لها ، ... كل أولئك بعيد عننا ونحن بعيدون عنه ، وكل مشروعاتنا ونحن بعيدون هي مشروعات مستعارة ، كالأجوه التنكرية ، وبينها وبين الواقع فرق ما بين الوجه التنكري والوجه الطبيعي !

تعالوا أيها المصلحون الاجتماعيون هنا إلى الريف. عيشوا أيها المشرعون الاجتماعيون هنا في مصر. ولا تأتوا - إذا جئتم - بعقلية الناهرة ، ونفسية القاهرة ، فإن الريف لن يفهمكم إذن ولن تفهموه ، ولكن تعالوا إلى هنا لتندجوا في البيئة ، ولتكابدوا مشقاتها ، وتفكروا تفكيردا . ثم بعد ذلك كله - لا قبله - ضموا المشروعات لإصلاح الريف على أساس الواقع لا على أساس التقليد .

(١)

ها هي ذى عربة الديل تقطع الطريق من القاهرة إلى أسيوط ، ثم ها هو ذا التطار يطوى الأرض إلى سوهاج... ها هو ذا الوادى الخالد يتسع تارة ويضيق ، ولكنه هو هو الوادى الأخضر الوديع المنساب كالنغمة الحلوة من الناي العميق !

وها هو ذا الغروب الرائع ، وها هو ذا منظر الرواح . فالريفى وبهائمه وماشيته يؤلفون "موكب الرواح" من الحقول . ذلك الموكب الذى ألفه الوادى منذ مئات الأجيال . إنه هو هو لم يتغير ولم يتبدل منذ آلاف السنين .

أيها الوادى . إنك لساحر . أيها الأرض إن لك بلحاذبية ، وإن هذا الفلاح لمشدود إليك منذ الأزل ، وإنه لن يتخلص من هذا الوثاق ، فإذا شاء المصلحون الاجتماعيون وإذا شاء المشرعون الاقتصاديون أن يفكروا فى طرق الإصلاح وفى وسائل الرخاء ، فليبنوها على أساس هذه البلحاذبية .

نقد لقبنى الكثيرون ممن يحبوننى من أهل الريف فكانت أقصى أميتهم لى أن يكون لى زرع وجرن ومحصول... إن هذه الأمية الساذجة لتصور مدى اعتزاز هؤلاء الناس بالأرض ، ومدى سحر الأرض وجاذبيتها لهم . إنهم لا يتصورون أمنية أسعد ولا أكبر من الزرع والقلع ! إنهم مخلصون للوادى ، متفاهون مع الطبيعة... إنهم مصريون !

وإنه ليجب أن تلفت إلى هذا عند المفاضلة بين المشروعات الاقتصادية والعمرائية يجب أن تكون المشروعات المتعلقة بالأرض وبالزراعة هى أول ما تفكر فيه لأنه يتفق مع هذا الحب الخالد للوادى ، ومع هذه البلحاذبية العميقة للأرض .

إن هذا الفلاح الريفى لن يهجر الأرض الحبيبة إلى أى عمل آخر إلا حين تنبذه هذه الأرض ولا تعود تعوله وتقوته ، وإنه ليركها حينئذ مرغما وهو يحن إليها مهما اشتغل بالصناعة وبالتجارة . وإنه ليعود إليها عند أول فرصة فيجب إذن أن نلبي رغبته وحببه بأن نحاول استصلاح أكبر مساحة نستطيع أن نستصلحها من أرض الوادى ، وأن تكون المشروعات النيلية لتوفير المياه لهذا الاستصلاح فى مقدمة المشروعات. فأما إذا أردنا الصناعة فلنقدم الصناعات الزراعية على كل صناعة أخرى ، فإنها ترتكب إلى أساس متين ، وإلى حب دفين ، فى نفوس المصريين .

والماشية ! إنها قرينة الأرض في الجاذبية وعديلتها في المحبة . إن جاموسة الفلاح وبقرة وجمله وغنمه هم أصدقاءؤه . نعم وأعبر عنهم بضمير العاقل (هم) فإن الفلاح يعاملهم معاملة الأصدقاء والعقلاء ، ويحس لهم في نفسه ما يحس للأهل والأبناء .

فيجب إذن أن يكون لهذه الظاهرة أثرها في مشروعاتنا . يجب أن نهد لهذا الريفي اقتناء أحسن السلالات رويدا رويدا ، وأن نلقيها ضد الأمراض مجانا ، وأن نسرع بقانون التأمين على الماشية ، فإن هذا التأمين لها هو تأمين لحياة الفلاح كلها ، وحين يعرف هذا الفلاح أن بقرته أو جملة أو جاموسه مضمونة الحياة أو الثمن ميشعر بالاطمئنان على حياته وحياة أبنائه ، وعلى رزقه ورزق عياله ، ولن يذبح البهيمة المريضة ويبيع لحمها الموبوء فينشر الأمراض بين الأدميين ، فإنه إنما يمنع هذا لأن بهيمته رأس ماله ، فليقتد منه ما يستطيع إتقاده !

ويطول بنا الحديث حين نمضي في استعراض المشروعات التي يمكن تقديمها والعناية بها على أساس المعرفة بجاذبية الأرض في الريف ، فلنخصه في كلمتين اثنتين : الزراعة والصناعات الزراعية وما يتعلق بهما من مشروعات .

(٢)

ونحن سكان القاهرة — نخيّل إلينا في بعض لحظات الحق والغرور — أننا نملك تغيير ما لا نحب من عادات مصر وتقاليدها ، بجملة صحفية ، أو إذاعة لاسلكية ... !
ألا ما أشد غرورنا نحن القاهريين ! إن التقاليد المصرية لأعمق من أن تؤثر فيها هذه الصيحات التي تذهب في الهواء . إن مصر الحقيقية هي هذا الريف المتماك القوي المؤمن بتقاليد إيمانه بالدين !

وإننا لنغيب عن هذا الريف الخالد بضع سنوات فيخيّل إلينا أن الزمن صنع هناك شيئا وأننا سنعود إلى الريف فنجده قد تغير كثيرا أو قليلا . ثم نعود ... فإذا الريف هو الريف : هادئ مطمئن ، مخلد إلى عقائده وتقاليدته ، مؤمن بعاداته وشرائعه ، فإذا نحن حاولنا أن نعيش هناك بعقلية القاهرة ، وأن نعامله بتقاليد القاهرة ، نظر إلينا في عجب رقيق وسخرية خفيفة ، ومضى في طريقه هادئا مطمئنا ، فما نلبث نحن أن نتخاذل ، وأن نتضاءل ، وأن تنطوي قاهريتنا ويتبخر غرورنا ، ونعود نحن أيضا لتقاليد الريف ولأحكام الريف !
وقل ما أقول عن ضرر هذه الحالة وعن أثرها في تأخرنا وجمودنا ، وعن وعن . . فإن هذا كله ان يغير من الواقع شيئا ، ولن يزعج الريف عن اطمئنانه وهدوئه ، ولا عن إيمانه بتقاليدته .

وقل ما تقوله أيضا ؛ فان تستطيع أن تنكر أن قوة الريف إنما تمثل في هذه الظاهرة ، وأن مصر قد ابتلعت كل الفاتحين وكل الوافدين بهذه القوة نفسها ، وأن عمق تنالدها هو الذي حماها من الأندثار في خلال عشرين قرنا قضتها في ظلال الفاتحين من كل جنس ودين ! فعمل هذا الأساس يذبح أن نبني مشروعاتنا الاجتماعية : كل مشروع يعارض التقاليد العميقة مقضى عليه بالفشل مهما كان صالحا ، ومهما كانت السلطة التي تسنده ، ومهما كانت العقوبة التي تؤكده . وما هو إلا أن يصطدم بالصخرة الراسية المطمئنة حتى يذهب بددا ، وتبقى الصخرة الراسية المطمئنة .

لقد كنت من أشد الداعين مثلا إلى سن قانون بالكشف الطبي على الزوجين قبل الزواج . كنت متحمسا لهذا المشروع وأنا هناك في القاهرة ، أشاهد المجذومين والمصروعين والمسولين ، وأعلم بأنهم أبناء المرض والشذوذ ، وأشاهد فتيات القاهرة وهن يسبحن في الطرقات كالديدان ويرتدن كل مكان . فبكنت حينئذ أنادى : يجب أن يكشف على الخطيبين قبل الزواج !

ثم جئت إلى الريف . فإذا هذا المشروع الذي كنت متحمسا له ، حلم جميل ، وخيال بديع . ولكنه لا يستطيع أن يثبت للواقع ، ولا أن يقف للتقاليد !

أين هي الأسرة التي تعرض فئاتها على الطبيب ليقرر صلاحيتها للزواج ، مهما تكن شدة العقاب ؟ لأنه لا وجود لهذه الأسرة ، ولو شذت أسرة واحدة ، لوقفت التقاليد العميقة في الطريق . وليقل من شاء كيف شاء : "هذا تأخر . هذه رجعية . هذا جهود" فسيذهب هذا القول في الهواء ، وسيتم الزواج بلا كشف طبي ، وسيحتال على القانون ، فإذا لم توجد الحيلة فيسخرق القانون ، وليكن ما يكون !!!

أفلا سبيل إذن إلى الإصلاح الاجتماعي أمام التقاليد ؟

هناك السبيل ، ولكن على شرط ألا يصطدم بالتقاليد ! وأن يكون العرف والدين مساعدين للقوانين . ومن الذي يعرف هذا العرف من القاهريين ؟ ومن الذي يعرف الدين في الريف كيف يكون ؟

أيها المشرعون : تبالوا هنا إلى الريف قبل أن تتعبوا أنفسكم في صوغ القوانين . ومن الريف ، ومن تقاليد الريف ، خذوا الاتجاه العام ثم صوغوا النصوص كما تشاءون !

(٣)

وللبينة هنا منطق لا سبيل إلى تجاهله . وهو منطق الواقع الملوس .

جلس معنى شاب ريفي غني يتحدث من نفسه في سداجة وطلاقة وهناك مستمعون كثيرون . قال ما معناه : "إن من نعم الله على أئني لا أعاف شيئا ، وأن نفسي لا تتقرز

من شيء . فليست كالأخرين الذين يرون مريضاً أو قذراً يشرب من إناء فلا يشربون من ذلك الإناء ، أو يسمعون أن هناك مريضاً بمرض يعدى فيمتنعون عن زيارته ... إننى أتوكل على الله ، ونفسى لا تخشى شيئاً من قدر الله “ .

فماذا قال السامعون ؟ إنهم جميعاً بلا استثناء ، وفيهم الشيخ والشاب ، وفيهم الغنى والفقير ، قالوا بصوت واحد : ” هذه نعمة من نعم الله عليك حقاً ! هذا شيء جميل ومرح ! هذا فضل من الله ! “

هذا منطق البيئة . البيئة التى تعجز المتحرزين عن التحرز . والذين عاشوا فى الريف يعلمون معنى هذا الكلام ، فلن تستطيع أن تعزل مريضاً عن بقية الأصحاء ، لأن منطق البيئة لا يستسيغ هذا العزل . وإن تستطيع التخصير فى عيادة مسلول ، لأن منطق البيئة لا يقبل عذرك فى هذا التخصير . ولن تستطيع أن تتفرز من طفل قدر أو رجل أجرب أو مجذوم ، لأن منطق البيئة لا يفكر لك هذا التفرز .

وما هو إلا أن تقيم فى هذه البيئة بضعة سنوات حتى تطحنك طحناً ، وتعجنك عجناً ، وتحملك ريقياً فى منطقته ومعاملته ، لأن هذا هو منطق الريف !

ومن هذه الكلمات التى نقلتها لك من حديث هذا الريفى تستطيع أن تفهم كيف تنتشر العدوى ، وكيف تنبذ نصائح الأطباء ، وكيف تذهب إذاعات وزارة الصحة ، وكيف تعم الأوبئة فى فترات متقاربة أو متباعدة .

والباب الوحيد المفتوح للإصلاح الاجتماعى والصحى من هذه الناحية ، هو باب الوعظ الدينى . فهذا الريفى المصرى مفتوح السمع والتقلب للدين ولدعوة الدين ، وإن لم يكن فى ظاهره من المتدينين . وإن المصرى لأشد أهل الأرض استسلاماً للدين فى أعماق أعماقه ، حتى لتجد هذا الاستسلام فى كبار المجرمين والمفسدين !

يستطيع الوعظ الدينى المثقف أن يهض بالعيب إذن فى الريف المتدين ، وهذا يلتفت نظرنا بشدة إلى التخصير فى هذه الناحية وإلى التقصير فيها كذلك فالوعظ الدينى يجب أن يكون مثقفاً عصرياً عالمياً ، وأن نبذل من العناية فى إعداد ما يبذل لأعظم مشروعات الإصلاح الاجتماعى فهو أساس هذا الإصلاح فى الريف .

أيها الوادى المنساب فى ضمير الأبد . أيتها الأرض العريقة فى مجاهل التاريخ . إننى أحبك . أحبك على الرغم من كل شيء .

وأما أتم أيها المصلحون الاجتماعيون والمفكرون الاقتصاديون : فتعالوا هنا إلى الريف العريق ، إلى الأرض الطيبة ، إلى الوادى المقدس . ومن هذه البيئة القوية العميقة خذوا مشروعاتكم وسنوا قوانينكم ، وإلا فآتم خيالون أو هازلون !

سيد قطب